لحظات قبل موت عاهرة

بقلم

محمد الأمين محمدي

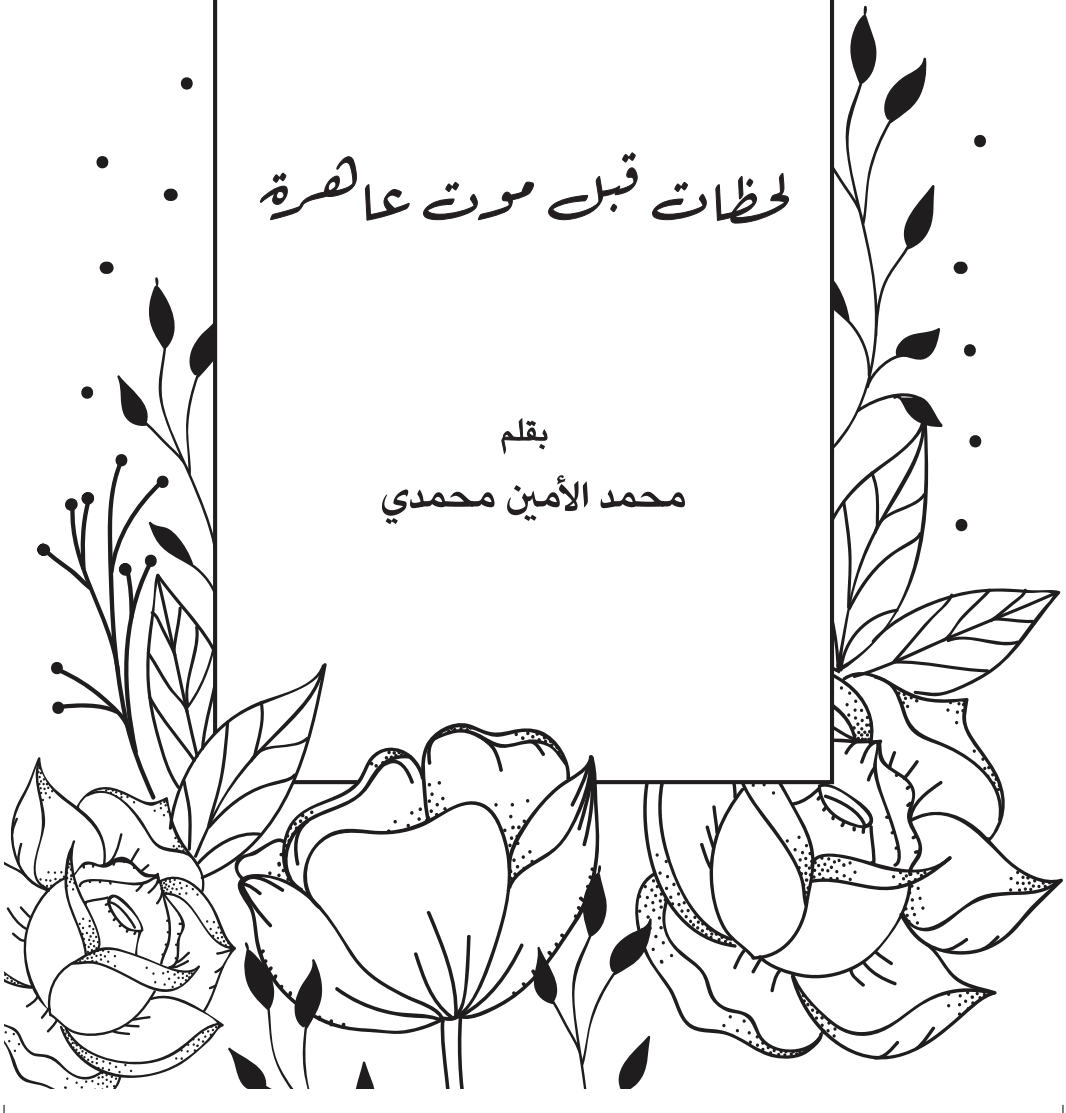

تمتمة وتأوهات ودموع تُذرفُ من عين واحدة فقط على هذا السرير، المغطى ببطانية فخمة من الحرير المنتج من بطن دودة أصيلة، وزركشات قلوب بخيط مطلي بالفضة، وعشر ثوان هن الباقيات على هذا السرير، نفس السرير الذي كانت تمارس فوقه عهرها، نفس السرير الذي حصد الآلاف من القتلى من جنود وأطباء ومفكرين وكادحين، ولربما بضع الأغنياء ورئيس وزراء مستقبلي... لا أحد هنا بالغرفة غيرهما؛ نادية وحاصد الأرواح في مباراة من عشر ثوان ابتدأت ب ١ - ٠ لصالح حاصد الأرواح في غرفة بها من عبق الفجور قوارير من أغلى الأثمان على منضدة خشبية مصنوعة بالتحديد كطاولة مارلين مونرو، فحتى عدة التبرج تلك، والمصابيح على جوانب المرآة نفسها لا زالت المرآة تذكر كل ثانية من المحادثات بينهما، لا زالت تذكر تغزل نادية بنفسها على مرأى منها، كما بذاكرة المرآة سويعات من القُبل الساخنة مع وجوه لا تذكر تفاصيلها، كل ما تذكره دور نادية الأساسي في كل مشهد... لم يتوقف الأنين الآتي من السرير، وحاصد الأرواح شرع يحل معادلة المماس، فتقدير دلتا هنا خروج روح المتمددة، ومحور الفواصل أشرف يحسب الثواني بينما محور التراتيب أعطى معدل مائتي كلمة لكل ثانية، والعد التنازلي قد يبدأ الآن أو في ردة الطرف

الثانية، لا حل أمام نادية للنجاة سوى مهنتها... بالفعل هي تمارس فعلتها من جديد...

– أتغازلين حاصد الأرواح وسط دَوَامِهِ! وسط إطباقه على روحك وأنتِ في هذه الحالة تحاولين جاهدة ملامسة يده... أتخالينه مكاني يعلم ما يدور بذهنك ليرى تفكيرك الماجن... لا تتمادي بل أوقفي طمعك؛ فهو لا يجيد القُبل كما لا اسم له! فتوقفي عن التفكير...

وبينما يتبادلان أطراف الحديث نسيت نادية أمر صائد الأرواح، وغفلت عن محور التراتيب الذي سرق منها سبعين كلمة، وأخذت تلوم قرينها قمر على تبجحه في مقاطعة تغزلها بغريمها، وها نحن هنا على حافة انهيار الثانية العاشرة قرب لافتة «مدينةُ الثانيةِ التاسعة ترحب بضيوفها الكرام»، مدخل ضيق وقمر بالغرفة ينتظر موت صاحبته، وهي عاجزة عن الحراك لكن غريزتها الفاجرة تحاول رسم جدول التغيرات كي تعانق قلب صائد الأرواح، مسكينة نسيت حكايات الأجداد فلا قلب لغريمها ولا تعويذة تبطل الألم...

– شعور غريب أليس كذلك؟ أُحس بما يحدث في جسدك من تغيرات لكن فرق صغير بيننا سأبقى جالسًا على قبرك لن أموت مثلك...

تزيد حسرتها فحتى قمر لا يتألم لألمها، وساعة الجدار تلك تحسب أجزاء الثواني جزءًا جزءًا، ثم بدأت حياتها بالرجوع العكسي كما أحست بركود في سرعة دورتها الدموية واحتارت فلم تعتد يومًا على البرودة كان جسدها مستعدًا دومًا لمعانقة مثيرة فوق... الثانية الثامنة. اعتادت نادية التحكم بالوقت مع الزبائن وربما تضيف رشة

دقائق إذا أعجبها الزبون أو راق لها، لكن هنا لا رحمة؛ لا الوقتُ رحيم ولا صاحبه أرحم، لا رشوة تغريه لا شهوة تغويه، لا ابتسامة على وجهه ولا حتى غضب باد وسط عيونه؛ فقط انعكاس ذلك اللوح الذي يدون فيه بعض الجداول تبدو لها حروز غير مفهومة أو طلاسم.

صراخ من صورة لها بفستان أحمر قصير معلقة بالجدار؛ تذكرها بأول علاقة ليلية أخذت فيها أجرًا عاليًا، كيف لا والشاب ابن رئيس شركة طيران عالمية؛ تذكرها بفرحة امتلاك سيارة في ساعتين، واكتشافها لسلاح فتاك يكمن بين فخذيها... لكن ما بال الذكريات الآن تبدو شائكة، ولمحت تشطيبًا على خانة أخرى في اللوح لانقضاء ثانية جديدة.

بالغرفة دولاب على يمين السرير من الخشب الأحمر؛ به مرايا على كل باب ترسم صورتها ممددة شاحبة اللون سوداء الأهداب بشفتين رماديتين ولا انعكاس لجليسها، فتح قمر باب الخزانة لتنكشف ملابسها الأنيقة الفخمة المرصعة بفراء الراكون وجلد التماسيح، ولباس هو الأفخر ناصع البياض طرز خصيصًا لها من فرو آخر عنقود من سلالة ذئب التيندرا؛ تلبسه عادة للقاء السفراء والوزراء الأجانب، والوقت يلتهمها والدمع يزيد مع كل ضيق تنفس، مع كل شد عضلي وسط كل الذكريات الصفراء، ورعشة باردة أخرى تزيد العروق ضيقًا. بينما هو يسجل تراتيله على اللوح طُرق الباب، فصرخت نادية بكل جهد بل بآخر ما تبقى من حبها للحياة فنظر إليها بعينيه السوداوتين الكبيرتين؛ كأنه يخبرها أن ترفع صوتها أكثر؛ عل من بالخارج ينجدها، ثم يعود لجدوله يحسب جدول التغيرات فربما النهايات تسعفها؛

لتقف على الرمز +∞ في كل الجوانب فتنظر لحظها العثر باحثة عن قرينها... «أين قمر؟ أين هو حين أحتاجه؟».

«أتبحثين عني؟ لن أفيدك في شيء، وصدقيني أفرح مع انقضاء كل ثانية، أُسعد حين أعرف بأنك سترحلين قريبًا كما أني لا ولن أدعو لك بالرحمة فقد وعظتك مرارًا لكن هواك أغراك... آه أعتذر عن تضييع ثانية أخرى من وقتك وأردت أن أذكرك بأن من بالباب زبونك أي بطريقة أخرى ستموتين والفجور على بابك».

لم تكن سعيدة لا بهمها، ولا بكلام قمر، ولا حتى بحالها، وبدأت تحس بثقل في الأضلع، وارتجاف في كل عرق، كما بدأت الغرفة باكتساب حلة من السواد، لا لم يكن سوادًا نعرفه نحن؛ إنه سواد تتبعه غرغرة وتقلص في الأعضاء إحساس بالإغماء...

«اعتقدت بأنك ستقاومين أكثر، أردت فقط أن أذكرك بتلك الأيام حين كنت تقولين بأن العالم ملكك، فأين تلك النبرة الحادة في صوتك أين تلك المرونة التي كنتِ بالملهى تتباهين بها...».

بينما كان يتكلم قمر لاحظتْ بأن حاصد الأرواح أنهى خانة أخرى، وفلت منها حبل الحساب لكن قمر وغريمها على دراية بالأرقام...

«أحقًا سأموت الآن؟ لكن ما زال لدي حياة أطول بكثير مما عشت لأعيشها، وما هذا الإحساس الخانق فوق صدري كأن شخصًا ما يجلس على قفصي الصدري، لا أستطيع حتى تحريك يدي فما عساي أفعل الآن؟ لا مفاتني ولا حتى جاهي كيف أخلص نفسي الآن... يا إلهي أرجوك.»...

«آههه أتذكرتِ ألله الآن؟! هههه ما أوقحك! أتذكرته الآن بعد أن ضاقت سبلك؟ أين كان إلهك حين كنت أذكرك به كل مرة؟».

التفتت نادية إلى قمر بعيون حسرة، عيونٍ لن تنقذها معادلات أرخميدس، ففي حساب نسبة نجاتها على سلم القسمة الإقليدية سيكون الباقي يعادل نقصان ثانية أخرى جديدة يشطبها الآن من على اللوح بطمأنينة، أما إذا حضر المكان نيوتن فقانون الجاذبية ذلك لن يخبر عن تركيز الكتلة التي تضغط على صدرها، فلا الذكر ينجيها ولا العهر يشفع. لا شاهد بالمكان يروي عواءها، ولا الجدار الهش يوصل بكائها، ولا الواقف بالخارج... تذكرت بأن شخصًا ما بالخارج يدق الباب، فحاولت الصراخ بقوة، لكن الميترونوم المعلق بالجدار لم يرتجف لصوتها؛ تعجبت فمن عادتها تحريك عقربه إلى الجهة الأخرى بدون عناء.

لا أمل لها الآن سوى قمر؛ عله يحن أو يرأف، فأخبرته في داخلها بأن الحمل فوق صدرها ثقيل، فهلوس لها قمر بذكريات جزار سمين كانت تواعده، وتتذمر بعد رحيله من وزنه، لكن ردت فعلها كانت بالاستغفار؛ ربما لأن الوقت المتبقي أمامها ثانيتان فقط، فالعدّ التنازلي لم يتوقف أبدًا، أما حياتها فعلى وشك الانتهاء. قريبة جدًّا هي من لقاء عذاب لم تكن على دراية بقربه، لا مفر الآن سوى العودة للطريق الصحيح، لن يهم أي ديانة ستعتنق؛ لأنها تحاول النجاة لا أكثر ولا أقل. لم تستطع التركيز بالقدر الكافي بسبب الطرق المتتالي على الباب.

فربما الزبون القادم في عجلة من أمره، طرق لا متناه، طرق يكل له المتن، طرق محتل غاصب على منزل عجوز صماء... تمامًا في مثل

هذه المواقف يضيع منا الزمن ونحن في عجلة من أمرنا؛ بسبب زيادة في تدفق الأدرينالين، فنعجز عن التفكير بنفس السرعة التي يتحرك بها جسمنا، في حالتها هي المنية توافيها، زاد الثقل على قفصها الصدري، وتصلبت عضلات جسمها، جف الريق في مبسمها القرنفلي فأفل، وانطفأت شرارة بريق كريات الدحل الملونة في عينيها، واخشوشنت قصبتها الهوائية؛ ليصبح نفسها السكري خشنًا لزجًا، لا نعومة الآن في ثنايا يدها الملائكية، وتحول جسد من جنة مليئة بحبات الكرز ولألئ الخال والشامات البنية وسط انحدارات الموت المؤدية لكنوز القراصنة المحروسة من ملوك المردة إلى كتلة لحم عفن تتحاشاه الطفيليات...

«أنى لهته الثروة أن تفنى يا صديقتي؟ أتريدين العيش والرجوع للطريق المستقيم أم أن العهر لا زال يغويك؟ أريد جوابًا صريحًا» قال قمر...

فأجابت دون تفكير أو مراجعة:

«سأتوب إن عدت ولو للحظة».

بالرغم من جهلها لما يجري.

ثم تمتم قمر:

«حسنًا أيتها العجوز أظن بأنه وقت رحيلك، فانزلي عن صدرها لعلها ستهتدي بعد هذا».

ما لم أوضحه حدث خلف الكواليس، فقد اتصل قمر قرين نادية بتلك الجنية العجوز التي يسميها الكثيرون رابوص أو جاثوم، أو كما يسميها غير المؤمنين بالميتافيزيقيا شلل النوم، بعد أن حاول هداية نادية بكل الطرق الممكنة وفشل، لفق لها مشهدًا ربما معدله النسبي

لا يتعدى ٢٥ , ٠٪ من حقيقة لقاء حاصد الأرواح، أو كما يسمى في ديننا ملك الموت.

حين استفاقت نادية حمدت الله حق حمده على الفرصة التي أُعطيت، لكن الطرق الذي كان بالباب لم يتوقف، حقيقي هو، فنظر إليها قمر نظرة استفزاز وسألها إذ ما ستستقبل الزبون أم ستفي بوعد الاهتداء والاستقامة؟ لم تبد في حيرة من أمرها، وقفت أمام المرآة وأخذت تتأمل جسدها وتفكر، ثم غاصت إلى أعمق بؤرة قد يصل إليها الجنس البشري وقت التفكير، ثم حملت أحمر شفاهها البراق وتعطرت، وأخذت أكبر نفس عهده قمر، وشتت شعرها على كتفيها بشكل عشوائي واستعدت لملاقاة زبونها وقالت:

«سأتوب حين أكبر، لا زلت أتمتع بمفاتني وشبابي».

فنصحها قمر بعدم فتح الباب فقد تندم على فعلتها تلك، لكنها لم تعره ولا ذرة انتباه، وهمت تتمايل وتلحن في صوتها الصداح، وأتت الباب بثدي إلى السماء، وظهر كالتفاف دالة يبرز خصرها الاسفنجي وفتحت الباب، ووافتها المنية غفلة، فحاصد الأرواح أُمر بإعطائها فرصة للرجوع عما تصنع، وكان ينتظر منها أن لا تفتح الباب كي ينصرف.

لم يسر في جنازتها أحد ممن كانوا يمتصون مفاتن ذلك الجسد؛ لأن هته اللحظات تذكرهم بمأواهم الأخير، وانفضت جنازتها ولا أحد يزور قبرها، وحتى شاهد القبر حجر، لا كتابة، لا نقش، لا تَرَحُّم كُتب عليه، لا أحد يجيء أو يذهب، كل القبور يزورها أهلها إلا قبر نادية يتحاشونه في همس:

«هذا قبر عاهرة».

رفيقها الوحيد قمر يجلس مكبلًا إلى الأرض منتظرًا يوم البعث؛ كي يتخلص منها ويدون كل ما شهده...

يعطينا الرب فرصًا لا تُعد ولا تُحصى كل يوم؛ كي نرجع للطريق ونتوب إليه، إلا أن طبيعتنا البشرية العاهرة تختار الفجور في كل مرة، ثم نندم فتحررنا النفس من ندمنا بمقولة غرنا الشيطان، والشيطان بريء في كثير من الأحيان مما نفعل ونفتعل، نحن فقط نسعى بكد لامتلاك بطاقات ذهبية؛ كي نفترش من مارج الجحيم عروشًا نقعد عليها؛ كي يكون عذابنا أضعافًا...

* * *